أبو هريرة في الطريق

قادم من دوس، من اليمن.. ذاكرة تحلم بأحاديث الحبيب ﷺ.. ليس بين سطورها مكان للدينار والدرهم.

أبو هريرة قادم لا يملك من الدنيا سوى غلام، وحتى هذا الغلام ضاع، فخيم الليل والفقر على أبي هريرة، وخيم الشعر كذلك.. لـ (أنه لما أقبل يريد الإسلام ومعه غلام ضل كل واحد منهما من صاحبه)[1] يقول رضي الله عنه عن تلك الليلة: (لما قدمت على النبي ﷺ قلت في الطريق:

يا ليلة من طولها وعنائها ... على أنها من دارة الكفر نجت

وأبق مني غلام في الطريق)[2]

واصل أبو هريرة معاناته ومسيره حتى وضعته أقدامه على أرض المدينة، وربما كانت أمه بصحبته، فقد كان من أعظم الناس براً.. رغم كفرها ورفضها للإسلام.

صادف رضي الله عنه آخرون يقصدون المدينة مثله، ووصل أبو هريرة ورفاقه ليلاً فلم يجد النبي ﷺ.

سأل عنه، فأخبروه أنه قد توجه إلى خيبر.. سأل عن نائبه في المدينة، فقيل له إنه يماني يدعى سباع بن عرفطة الغفاري رضي الله عنه، وبعد أن: (قدم المدينة في نفر من قومه وافدين، وقد خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر، واستخلف على المدينة رجلاً من بني غفار يقال له: (سباع بن عرفطة)، فأتيناه وهو في صلاة الصبح، فقرأ في الركعة الأولى: كهيعص، وقرأ في الركعة الثانية: ويل للمطففين.

قال أبو هريرة: فأقول في الصلاة: ويلٌ لأبي فلان له مكيالان، إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال.. كال بالناقص، فلما فرغنا من صلاتنا أتينا سباعاً، فزودنا شيئاً حتى قدمنا على رسول الله ﷺ)[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٣٠).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٣١)

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٣٩٠ وأحمد ٢-٣٤٥ وابن سعد ٤-٣٢٧ من طرق عن خثيم بن عراك بن مالك. عراك ثقة فاضل وابنه صحيح الحديث التقريب ٣٨٨ و١٩٣.

لم يتحرك أبو هريرة ومن معه فقط نحو أرض خيبر.. كان هناك من يشق عباب البحر نحو خيبر.. سفينة تحمل المؤمنين.. تحمل الغرباء المعذبين.. جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء ومن معهما من المهاجرين الأولين، وأبو موسى الأشعري ومن معه من مهاجري اليمن.. اجتمعوا في الحبشة، ولما وصلهم خبر الحديبية واستقرار الأمر على الصلح.. ركبوا أمواج البحر والفرح حتى قذفتهم على سواحل البحر الشرقية.. رياح المشاعر كلها نحو خيبر.. الجميع نحو خيبر إلا:

علي بن أبي طالب يتخلف في المدينة

لم يأمره النبي ﷺ بالبقاء، ولم يعينه بديلاً لسباع بن عرفطة أو أميراً عليه، فما الذي يجعلك يا أبا الحسن بعيداً عن حبيبك؟

سلمة بن الأكوع يجيب عن علي فيقول: (كان علي رضي الله عنه تخلف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان رمداً فقال: أنا أتخلف عن النبي ﷺ، فلحق به)[1].

إذا فهو الرمد، وكيف يقاتل المرء وعينه مصابة بالرمد..؟

لكن علي رضي الله عنه قرر ذلك، فطار نحو حبيبه ﷺ متناسياً معاناته ومرضه وعينه، حتى وصل إلى النبي ﷺ.

الرجال على الخيل والإبل والأقدام من كل مكان يتجهون نحو مهوى الفؤاد وقرة العين محمد ﷺ.. ونحو خيبر، لكن هناك من سبقهم وتغلغل في حصن اليهود قبلهم.. شيء جميل ليس من المدينة ولا حتى من البشر سبق الجميع..!

القمر.. يهوي من السماء فيقع في حصن خيبر، فيصيب أحدهم الفزع.. ما قصة القمر الذي هوى في حضن خيبر..؟

القمر الذي هوى في حصن خيبر

في ذلك الحصن.. حيث الظلام في كل مكان.. حيث اليهود نيام.. كانت هناك فتاة من اليهود من بني النضير، هربت نحو خيبر قبل قتل أبيها بعد معركة الخندق..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٠٩).

أبوهـــا الذي خان لله ورســـوله ونقض العهد وتآمر على وطنـــه، وخان من تآمر معهم. وقد تزوجت هذه الفتاة من يهودي يقال له «كنانة بن أبي الحقيق» وهي الآن في ليالي زفافها الأولى.

وهي الآن تغط في نوم العرائس، لكنها ترى شيئاً عجيباً.. نهضت الفتاة من نومها، فأخبرت عريســـها.. ربما كانت تظن أن هذه الرؤيا ستسعده كما سعدت بها. لكن هذا العريس فسر هذه الرؤيا بطريقة يهودية فريدة من نوعها. لقد كان تفسيره لهذه الرؤيا لكمة بقبضته القاسية إلى ذلك الوجه الجميل.. لكمة اخضرت منها عيناها.

من هذه الفتاة؟ ومن هو زوجها الملاكم هذا؟ وما تفسير هذه الرؤيا؟

على أرض خيبر تلكم العروس

فـــي إحدى حصونها تزف الآن أميرة إلى أمير.. يحتفل اليهود بذلك الزفاف على طريقتهـــم الخاصة، ويتوجه العروســـان إلى مخدعهما بعد أن حـــل الظلام على تلك الأرض وتلك الحصون، وبعد أن نامت العروس ونام الأمير ونام الجميع ســـاد السكون والظلام على أرض خيبر وسمائها.

وفجأة ظهر البدر في الســـماء.. لم يشـــاهده أحد ســـوى الأميرة، وعندما رمته بطرفها هوى بين يديها، واستقر برفق في أحضانها.

انتبهت الأميرة فإذا هو حلم لكنها لا تعرف تفسيره، وعندما استيقظ أميرها توجهت إليه بود علها تجد لديه تفسيراً لذلك الحلم، لكن ذلك الأمير كان أرعناً عديم التهذيب.

كانت أميرته تنتظر كلماته بشغف، لكن قبضته القاسية انطلقت كالقذيفة نحو ذلك الوجه الجميل.. لكمة شديدة سددها لعينيها حتى اخضرت منها، ثم بصق بكلمات أشد مـــن تلك اللكمة على مشـــاعر تلك الفتاة. لقد اتهم هـــذا الجلف المدعو: (كنانة بن أبي الحقيق)[1] هذه الفتاة بأنها تحلم بالزواج من ملك المدينة.. يعني محمداً عليه السلام.

---

(١) هو ابن زعيم خيبر الذي قتله الصحابي عبد الله بن عتيك داخل حصنه في خيبر .. واسمه سلام بن أبي الحقيق وقد مرت معنا قصة اغتياله لأنه كان أحد المتآمرين في غزوة الخندق، وهو الذي آوى زعيم بني النضير حيي بن الأخطب والد هذه الفتاة. وقد قتل حيي في المدينة بعد قدومه من أرض خيبر لتأجيجه الخيانة والغدر بالمسلمين من خلال تحريضه بني قريظة.

بينما تقول تلك الأميرة واسمها صفية بن حيي بن أخطب: «كان رأسي في حجر ابن أبـــي حقيق وأنا نائمة، فرأيـــت كأن قمراً وقع في حجري، فأخبرته بذلك [قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم قمراً وقع في حجري] فلطمني وقال: تمني ملك يثرب»[1]

آلمتها تلك اللكمة، وأحزنتها تلك الكلمات وذلك التفسير، لأنها بريئة طاهرة تتساءل وتسأل زوجها: «وما كان أبغض إلي من رسول الله، قتل أبي» حيي بن أخطب.

إذاً فهذان العروسان يحملان بغضاً شديداً لهذا النبي القادم من ديار صفية.. من المدينة، وهما يشتركان في حمل ثأر ثقيل ومرير، أما النبي ﷺ فما زال في طريقه إلى خيبر، وقبل خروجه من المدينة توجه بحديثه إلى صاحبه الكريم أبي طلحة زوج أم سليم ف «قال لأبي طلحة: التمس غلاماً من غلمانكم يخدمني حتى أخرج من خيبر»[2].

لم يجد أبو طلحة أنســـب من أنس بن مالك ابن زوجته أم ســـليم رضي الله عنهم جميعاً، فاستبشر أنس بهذه الوظيفة – الشرف، وحدث من حوله فقال: «فخرج بي أبو طلحة مردفي، وأنا غلام راهقت الحلم فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل»[3].

كان ذلك المسير يهدف إلى تجفيف منابع الغدر المنحدر من أرض خيبر، أما تاريخ المســـير فكان في شـــهر محرم، وفي الطريق كان النبي ﷺ يقرأ كل احتمالات الخطر. فعندمـــا وصل ﷺ إلى وادٍ بين غطفان وخيبر يقال له الرجيع.. توقف لقطع أي إمداد عسكري قد تقوم به غطفان لأصدقائها اليهود.

يقول أحد الصحابة إن النبي ﷺ: «ســـار إلى خيبر في المحرم، فنزل رســـول الله بالرجيـــع -واد بين خيبر وغطفان- فتخوف أن تمدهـــم غطفان، فبات به حتى أصبح فغدا إليهم» [4].

---

(١) ســـنده صحيـــح رواه ابن حبان واللفظ له ١١-٦٠٧ والطبرانـــي والزيادة له ٢٤-٦٧ من طريق الإمام الثقة حمـــاد بن ســـلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمـــر. وعبيد الله ثقة ثبت، من أوثق الناس عن الإمام الثقة نافع. انظر التقريب ٣٧٣ ورواه غيرهم.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٩٣.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٩٣.

(٤) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-١٩٧ حدثني الزهري عن عروة عن مروان بن الحكم والمسور. وهذا سند صلح الحديبية والسابق وهو صحيح.

كان مسير النبي ﷺ وجيشه حالة من التماهي والود تثير المشاعر والدهشة.. كان ﷺ في مسيره ذلك يفتح لهم قلبه.. يفتح لهم الكنوز ليأخذوا منها ما شاءوا، فحينما «أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير:

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله

فقال رسول الله ﷺ: أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم»[1]

يقول ذلك الصحابي: «وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ، فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فقال لي: يا عبد الله بن قيس. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي.

قال: لا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

ورآه مولاه شقران رضي الله عنه يسن فسحة لهذه الأمة، وسياحة مع الله دون مشقة أو تعب.

يقول شقران: «رأيته يعني النبي ﷺ متوجهاً يوم خيبر على حمار، يصلي يومئ إيماء»[3] دون الحاجة إلى مس ظهر الحمار، أو مس وجه الأرض، أو القيام عليها، بل دون التوجه إلى القبلة.. كان ﷺ لا يبالي أين اتجه به الحمار.

يقول ابن عمر رضي الله عنه: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي على حمار وهو موجه إلى خيبر»[4] وخيبر في جهة الشمال، والطريق متعرج، والنبي يحتاج إلى التعرج معه، ويقول ابن عمر «إن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته حيث توجهت به»[5].

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.

(٣) حديث حسن رواه أحمد ٣-٤٩٥ والطبراني في المعجم الأوسط ٣-١٤٩ من طريق مسلم ابن خالد الزنجي عن عمرو بن يحيى عن شقران. ومسلم صدوق له أوهام كثيرة لكن يشهد للحديث ما بعده.

(٤) صحيح مسلم ١-٤٨٧.

(٥) صحيح مسلم ١-٤٨٦.

كان ﷺ يتفقد أصحابه في كل مواقعهم، فلم يكن بمعزل عنهم مكتفياً بإصدار الأوامر والنواهي.. كان يشملهم برعايته، ويحتضنهم بقلبه.. «كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم»[1]، وكانوا كلهم يخدمونه، ويتسابقون لخدمته رغم أنه قد حدد من يخدمه.

هذا أحدهم أنس بن مالك يقول رضي الله عنه: «خرج بي أبو طلحة مردفي وأنا غلام راهقت الحلم، فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل فكنت أسمعه كثيراً يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال»[2]

سمع أنس ذلك الدعاء، لكن غيره سمع دعاء جديداً، وذلك بعد صلاة الفجر.. خلال تلك الأجواء الساحرة، وليس هناك أجمل من فجر الصحاري، وليس هناك ألذ من النهوض فيها.

كان ﷺ «يحرك شفتيه بشيء بعد صلاة الفجر، فقيل له: يا رسول الله، إنك تحرك شفتيك بشيء ما كنت تفعله، فما هذا الذي تقول؟ قال ﷺ: أقول: اللهم بك أحاول، وبك أقاتل، وبك أصاول»[3].

فجر جديد معطر بالنشاط والتوحيد.. حمل الصحابة رضي الله عنهم مع نبيهم حتى وصلوا إلى مكان يقال له (الصهباء) وذلك قبل العصر.

الوصول إلى الصهباء

كان الوصول إليها يعني الاقتراب جداً من خيبر، فالصهباء هي أول منطقة خيبر. يقول أحد الصحابة واسمه (سويد بن نعمان): «إنه خرج مع رسول الله ﷺ عام خيبر، حتى إذا كانوا بالصهباء -وهي أدنى خيبر- فصلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت

---

(١) سنده صحيح رواه أبو داود ٣-٤٤ وغيره من طريق إسماعيل بن علية، ثنا الحجاج بن أبي عثمان عن أبي الزبير أن جابر بن عبد الله حدثهم. أبو الزبير لم يدلس والحجاج ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١٥٣ وكذلك إسماعيل: ٦٥.

(٢) صحيح البخاري ٣ : ١٠٥٩.

(٣) سنده صحيح رواه ابن حبان ٥-٣٧٤ من موسى بن إسماعيل وهو ثقة ثبت عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. عبد الرحمن تابعي كبير وثقة من رجال الشيخين. التقريب ٤٩٦ وكذلك ثابت، أما حماد فإمام ثقة لكنه من رجال مسلم فقط. ولعل الأصح أن ذلك في حنين كما سيمر.

إلا بالسويق، فأمر به فثري، فأكل رسول الله وأكلنا، ثم قام إلى المغرب، فمضمض، ومضمضنا، ثم صلى ولم يتوضأ»[1]، ثم سار ﷺ حتى وصل إلى مشارف حصون خيبر.

هنا توقف ﷺ ليتأكد من أن يهود خيبر مازالوا على غدرهم وكفرهم وأن أرضهم خالية من الإسلام.. سينتظر حتى بزوغ الفجر، فإذا لم يرفع الأذان من داخل الحصون، فإنه سيشن غارته.

لا أذان في حصون خيبر

يقول أنس: «كنت ردف أبي طلحة يوم خيبر وقدمي تمس قدم رسول الله ﷺ، فأتيناهم حين بزغت الشمس وقد أخرجوا مواشيهم، وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومرورهم»[2] (وكان إذا غزا بنا قوماً، لم يغزُ بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم. فخرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلاً، فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب، وركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ.

فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم [خرجوا بالمساحي على أعناقهم] فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله، محمد والخميس،

[فلجأوا إلى الحصن] فلما رآهم رسول الله ﷺ [رفع النبي يديه] قال: «الله أكبر، الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»)[3].

سمع اليهود التكبير، ورأوا خيل الله تزحف نحوهم، فلجأوا إلى حصونهم وتركوا الرعب والجيش يتجولان في أزقة خيبر وشوارعها. أما الحصون فقد اكتظت بالجبن واليهود، فاحتل جيش الإسلام ما أمامه من مساحات دون الحصون «فغلب على النخل والأرض» وأرجأ فتح الحصون إلى الغد لصعوبة اقتحامها، ولما جاء الغد نادى ﷺ صاحبه الصديق.

---

(١) صحيح البخاري ١-٨٦.

(٢) صحيح مسلم ٢-١٠٤٥.

(٣) صحيح البخاري ١-٢٢١ والزوائد له ٣-١٠٩٠ و٣-١٣٣٣.

أبو بكر يقود أول حملة على حصون خيبر

ناداه النبي ﷺ وأعطاه الراية، فامتثل رضي الله عنه دون تردد

يقول بريدة: «حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر ولم يفتح له»[1] أي لم يتمكن من فتح حصن خيبر، وكانت تلك السرية تضم ثلة من شجعان الصحابة إلا واحداً.. هو علي بن أبي طالب، الذي كان يشكو من رمد في عينيه، وفي اليوم الثاني كرر النبي ﷺ المحاولة، لكنه أعطى اللواء هذه المرة لـ:

عمر بن الخطاب يقود الحملة الثانية

يقول بريدة وهو أحد الذين شاركوا في تلك الحملات: «وأخذ من الغد عمر فانصرف ولم يفتح له، وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد» فقد حاولوا وحاولوا، ولكن شدة التحصين كانت حائلاً دون الفتح، لكن النبي ﷺ -رغم ذلك- يبشر بفتح خيبر، فبعد أن استعصت تلك الحصون على السرية الأولى والثانية «قال رسول الله ﷺ: إني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له»[2] «يفتح الله على يديه ليس بفرّار»[3].

كانت المشاعر تحاصر حصون خيبر، وتدفع بالشمس نحو الشروق.. هبت أنسام الفجر، فنهض الصحابة للصلاة، وعندما أشرقت الشمس لاح في الأفق الفتح، فقد خرج أشجع رجل في اليهود.

---

(١) تخريجه في نهاية الحديث.

(٢) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٥-١٠٩ وأحمد ٥-٣٥٣ وغيرهما من طريق الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة قال سمعت أبي: بريدة. وعبد الله تابعي ثقة والحسين بن واقد ثقة من رجال مسلم. التقريب ١٨٠.

(٣) حديث صحيح بطرقه رواه أحمد ١-١٣٣ عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان أبي يسمر مع علي ورواه ابن أبي شيبة ٧-٣٩٦ من طريق عبيد الله قال حدثنا نعيم بن حكيم عن أبي مريم عن علي والنسائي في الكبرى ٥-١٤٤ عمران بن بكار بن راشد قال حدثنا أحمد بن خالد قال حدثنا محمد عن عبد الله بن أبي نجيح عن أبيه أن معاوية ذكر علي بن أبي طالب فقال سعد.

ملك خيبر يبحث عن مبارز

رجل جمع الملك والفروسية، فمن سيتصدى له..؟

أتذكرون ذلك الشاعر الذي كان يطرب الصحابة في الطريق إلى خيبر..؟ إنه عم سلمة بن الأكوع، واسمه عامر بن الأكوع. عامر هذا جمع الفروسية والشعر والحداء والتحدي أيضاً.

يقول ابن أخيه سلمة: «خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

وبرز له عمي عامر فقال:

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يسفل له، فرجع سيفه على نفسه، فقطع أكحله فكانت فيها نفسه. فخرجت فإذا أصحاب النبي ﷺ يقولون: بطل عمل عامر، قتل نفسه.

فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله بطل عمل عامر؟ قال رسول الله ﷺ: من قال ذلك؟ قلت: أناس من أصحابك. قال: كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين ثم أرسلني إلى»[1].. إلى من..؟

أرسله إلى فارس خيبر المنتظر، لكن تفاصيل حدثت قبل إرساله نحتاج إلى معرفتها، فالصحابة ينتظرون اسم الفارس الذي سيفتح خيبر.

يقول سهل بن سعد عن تشوق الصحابة وتجمعهم لذلك: «فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها»[2] كل الصحابة يرجونها.. كلهم مرشحون إلا واحداً.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٥٧.

عمر بن الخطاب يحدثنا عن مشـــاعر ذلك الصبـــاح فيقول: «فما أحببت الأمارة قبل يومئذ، فتطاولت لها، واستشرفت رجاء أن يدفعها إلي»[1]

بريدة رضي الله عنه يقول: «وأنا فيمن تطاول لها»[2].

أمـــا النبي ﷺ فقد كرر بث الحماس في أصحابه، كما فعل في غزوة أحد فقال: من يأخذ الراية بحقها؟ (أخذ رسول الله ﷺ الراية فهزها ثم قال: من يأخذها بحقها؟ فجاء الزبير فقال: أنا

فقـــال: أمط. ثم قـــام رجل آخر فقال: أنا. فقال: أمط. ثم قـــام آخر. فقال: أنا. فقال: أمط.

فقال رسول الله ﷺ: والذي أكرم محمد لأعطينها رجلاً لا يفر بها)[3].

صرح النبي ﷺ بفارس هذا اليوم ونطق باسمه.. كان اسماً غير مطروح ولا متوقع، نظراً لظروف هذا الفارس الصحية، والحالة التي يمر بها، فهو لم يشـــارك في أي سرية من السرايا في الأيام السابقة، وما أخرجه من المدينة سوى الشوق لنبيه ﷺ، وإلا فهو في حالة عذر عن القيام بأعباء الجهاد، بل إنه عاجز تماماً عن الجهاد.. رغم ذلك كله:

النبي ﷺ ينادي علياً

غدا الصحابة «على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله.. فأرسلوا إليه فأتوني به»[4].

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه خارج قوائم الترشـــيح عند الصحابة، حتى لقد قال ســـلمة بن الأكوع: «فـــإذا نحن بعلي وما نرجوه»[5]، وذلك لشـــدة الرمد الذي

---

(١) مر تخريجه وهو صحيح.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد في فضائل الصحابة ٢-٦١٧ وغيره من طريق إسرائيل عن عبد الله بن عصمة سمعت أبا سعيد الخدري. ابن عصمة تابعي صدوق قال في الجرح والتعديل ٥-١٢٦ سألت أبا زرعة عن عبد الله بن عصمة أبي علوان فقال كوفي ليس به بأس.

(٣) سنده صحيح رواه ابن حنبل في فضائل الصحابة ٢-٦١٧ وهو الحديث السابق.

(٤) صحيح البخاري ٣-١٣٥٧.

(٥) صحيح البخاري ٣ - ١٠٨٦.

أصاب عينيه، بل إن علياً نفسه لم يتوقع ذلك، وإلا لجاء مع الصحابة المتلهفين إلى الإمساك بالراية.. لقد كان علياً مشغولاً بعينيه، لكن قوة إيمانه وعزمه حملاه على المشاركة المعنوية، بعد أن تعذرت عليه المشاركة البدنية مع نبيه وأخوته.

إن كرامة الله لعلي رضي الله عنه تشابه كرامته لعمرو بن الجموح، وعبد الله بن حرام.. شيخان انتزعا نفسيهما من ظروف قاهرة وصعبة.. عمرو بن الجموح كان شديد العرج، وعبد الله بن حرام لديه تسع بنات، أما علي، فقد قال لنفسه بعد أن غادر النبي ﷺ أصحابه نحو خيبر «أنا أتخلف عن النبي ﷺ..؟ فلحق به»[1].

غداً موعد لفتح جديد، وغداً ستشرق الشمس على أرض جديدة بالإسلام، وأرض جديدة للإسلام، لكن ماذا عن فاتحها، وهل هذه الصفات لا تنطبق إلا على رجل واحد فقط..؟

الصفات والأحداث تقول: لا.

فالنبي ﷺ قال: يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، وهذا الجيش ينعم كله بهاتين الصفتين، لأنه جيش الحديبية الذي قال الله عنه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أما قول النبي ﷺ: ليس بفرار، فهذه الصفة يتزين بها أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، والزبير، وابن عوف، وابن عبادة، والمقداد، وأبو دجانة، وسعد وأسيد، وبلال، وغيرهم.. وغيرهم.

إذاً فهو تكريم من الله للفاتح غداً، كتكريمه لوالد جابر بن عبد الله في غزوة أحد، ولا شيء يؤكد هذا مثل الشعور الذي انتاب الصحابة وهم ينتظرون ذلك الغد على أحر من الشوق.

هذا بريدة يتحدث عن مشاعر الصحابة فيقول: «فما منا إنسان له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا هو يرجو أن يكون صاحب اللواء»[2] ثم يتحدث رضي الله عنه عن

---

(١) مر معنا في أول الغزوة وهو صحيح.

(٢) حديث الحسين بن واقد السابق.

مشاعره الخاصة فيقول: (وأنا فيمن تطاول لها)[1] ويقول سهل بن سعد: «فبات الناس يدكون ليلتهم أيهم يعطاها»[2]

أما عمر بن الخطاب فيصف شوقه قائلاً: «ما أحببت الأمارة إلا يومئذ، فتساورت لها رجاء أن أدعى لها»[3].

امتثل الصحابة، فبعثوا سلمة بن الأكوع إلى علي، فوجده على حال يرثى لها.. وصل «إلى علي وهو في الرحى يطحن»[4] لإخوانه المجاهدين.. اكتفى علي بأن يكون خادماً لنبيه وإخوانه. ويقول سلمة: «فبعثني إلى علي وهو أرمد، فجئت به أقوده»[5] «فجاء وهو أرمد لا يكاد أن يبصر»[6] «فقال: يا نبي الله ما أكاد أبصر؟ فنفث في عينه»[7] «ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع»[8] «وهز الراية ثلاثاً ثم دفعها إليه»[9] وبعد أن أعطاه الراية أمره بأمر ينضح بالانتصارات.. أمر كالسيف:

لا تلتفت

أخذ فارس خيبر راية الإسلام منطلقاً إلى حصون خيبر، لكنه تذكر رسالته التي يحملها في صدره.. رسالته التي أخرجته من داره بمكة، فهو لا يحتاج إلى دماء هؤلاء اليهود الخونة، فهل سيلتفت والنبي ﷺ قد قال: («امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك».

فسار علي شيئاً ثم وقف، ولم يلتفت [للعزمة] فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ [أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟].

---

(١) حديث الحسين بن واقد السابق.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٧٢.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٧١.

(٤) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ والحاكم ٣-١٤٣ والطبراني ١٢-٩٨ وغيرهم من طريق الوضاح وهو أبو عوانة حدثنا يحيى ابن أبي سليم أبو بلج حدثنا عمرو بن ميمون أن بن عباس. ابن ميمون ثقة مخضرم ويحيى صدوق ربما أخطأ التقريب: ٦٥٢.

(٥) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.

(٦) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ وهو الحديث قبل السابق.

(٧) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ وهو الحديث السابق.

(٨) صحيح البخاري ٣-١٠٩٦.

(٩) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ وهو الحديث قبل السابق.

قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، فإذا فعلوا فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[1].

كل هـذا التجاوز والصفـح، وكل هذه الأجـواء الرحبة مفتوحة لليهود.. سـيتم التغاضي عن خياناتهم وغدرهم يوم الأحزاب، وقبله مقابل ماذا؟

مقابـل الدخول في دين الله وعبادته وحده، فالهـدف ليس تطهير حصون خيبر وأرضها، بل تطهير قلوب ساكنيها من الكفر، الذي حول حياتهم وسلوكياتهم إلى خيوط وعقد من المؤامرات السوداء، التي تخنق الأمن والأنفاس.

لم يعرض النبي ﷺ عليهم دفع فدية..

هو الإسـلام أو عقوبة الخيانة، وبالإسلام يحتفظون بأموالهم ودمائهم وديارهم، لكنهـم يهود. أما علي المتوجه كالموت نحوهم، فقـد قدم له النبي ﷺ ولأتباعه كلمات كالمطر. قال ﷺ لعلي: «انفذ على رسـلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[2].

قـدَّم ﷺ تلك النصائح لأنه لا يأس مع الدعوة إلـى الله، ولو كنت تخاطب خائناً حاقداً متطوياً كالحية داخل حصون خيبر.

انطلـق علي حاملاً رايته، وحاملاً أملاً بدخول هؤلاء القوم في دين الله، ولما نزل بساحتهم.. دعاهم إلى الإسلام كما أمر.

لكنه جوبه برفض قاطع، وظن القوم أن هذا الجيش سـيعود كما عاد في اليومين السابقين، بل لقد فتح باب الحصن مرة أخرى فخرج منه ذلك الحتف العنيد، والفارس المرعب (مرحب) الذي يتحدى الجميع بعد أن استشهد عامر بن الأكوع على يديه.

(خرج مرحب مرة أخرى فقال:

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٧١ والزيادة صحيحة السند وهي في ابن حبان ١٥-٣٧٩ إبراهيم بن الحجاج السامي حدثنا حماد بن سلمة عن بقية سند مسلم وإبراهيم وحماد ثقتان.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٩٦.

قد علمت خيبر أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال علي:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة
كَلَيثِ غابات كريه المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

فضرب رأس مرحب فقتله)[1].

وقتل معه ما تبقى من معنويات اليهود الذين أغلقوا حصونهم بعد هلاك ملكهم فقام علي باقتحام حصنهم الأول ثم الذي يليه[2]، وأثناء ذلك سقط بعض الشهداء من المؤمنين والتحقوا بعامر بن الأكوع رضي الله عنه. واشتد القتال والاقتحام، وبدأت أرض خيبر تتحول إلى جديد يكتبه الصحابة بدمائهم.

سلمة بن الأكوع.. فارس بحجم جيش، لكنه أصيب، فأنقذته معجزة ساقها الله على يد رسول الله ﷺ.

معجزة لجراح سلمة

سأل رجل سلمة بعد أن: «رأى أثر ضربة في ساق سلمة: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر. فقال الناس: أصيب سلمة. فأتيت النبي ﷺ، فنفث ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة»[3].

عاد سلمة إلى بقية الفرسان.. عاد إلى ساحة تختنق فيها الخيانة واليهود، وانضم النبي ﷺ إلى جنوده يوجههم، ويؤازرهم، بل ويبتسم أحياناً في وجوههم.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.

(٢) هناك روايات ضعيفة ومضطربة أن علياً خلع باب خيبر لوحده، فلم يستطع حمله إلا عشرات الرجال وهي من الروايات التي يبدو عليها الوضع.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.

حدث ذلك عندما بدأ اليهود يتخلصون من بعض الأشـياء التي قد يسـتفيد منها المسلمون القادمون لا محالة.

ابتسامة النبي ﷺ في وجه عبد الله بن مغفل

يقول رضي الله عنه: «كنا محاصرين قصر خيبر، فرمى إنسان بجراب فيه شحم، فنزوت لآخذه، فالتفت فإذا النبي ﷺ [متبسماً] فاستحييت»[1].

كان اليهود يحاربون دون مواجهة.. خلف الحصون، إلا من كان في مثل شـجاعة وبأس ملكهم الهالك (مرحب)، أما البقية فمن خلف تجاويف الأسـوار ينفثون سـهاماً كالموت، فبينما كان أحد فرسان المسلمين يطارد خلالها شجعان اليهود، وتطارده كلمات الإعجـاب من المحاربين.. تطـارده كل عبارات الثناء إلا عبارات تصدر أسـفاً عليه.. كلمات أسف من النبي ﷺ على:

بطل آخر إلى النار

فبعـد أن وصل أبو هريرة إلى أرض خيبر قال: «شـهدنا مع رسـول الله ﷺ خيبر فقال لرجل ممن يدعي الإسلام، هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شـديداً فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله الذي قلت إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً، وقد مات فقال النبي ﷺ: إلى النار. فكاد بعض الناس أن يرتاب»[2].

أخذ هذا الرجل إلى مكان آخر لمداواته، لذلك سنتركه لنتابع أحداث المعركة على أن نعود إليه لاحقاً، فقصته مثيرة ومؤثرة، لكن السـاحة الآن تشـهد انحسار اليهود، وتساقط أسوارهم.. قتل منهم من قتل، ولاذ من بقي منهم بآخر حصونهم وأمنعها.

يقول الشـاب عبد الله بن عمر: «إن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلـى مقرهم، فغلب علـى الأرض والنخل والزرع»[3] ولم يبق لليهود سـوى المقاومة أو الاستسلام، فحول هذا السور فرسان كالموت الأحمر أحدهم:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٩ والزيادة لمسلم ٣-١٣٩٣.

(٢) صحيح البخاري ٣-١١١٤.

(٣) سـنده صحيح رجاله أئمة ثقات رواه أبو داود ٣-١٥٧ وغيره من طريق حماد بن سـلمة عن عبيد الله بن عمر قال أحسبه عن نافع عن ابن عمر . وهو على شرط مسلم.

بريدة والموت الأحمر

بريـــدة رضي الله عنه توهج ذلك اليوم، لكنه يرى أن توهجه ذلك كان أعظم ذنب ارتكبه في حياته منذ أسلم، أما لماذا؟

فالسؤال لا يعرف الإجابة عليه سوى بريدة الذي يقول: «شهدت مع رسول الله ﷺ فتح خيبر، فكنت فيمن صعد الثلمة، فقاتلت حتى رئي مكاني، وأبليت وعلي ثوب أحمر، فمـــا علمت أني ركبت في الإســـلام أعظم منه. قال: للشـــهرة»[1] فمهما كانت إنجازات المســـلم عظيمة، ومشـــاريعه عملاقة في تكريس هذا الديـــن، إلا أنها تتوقف على بوابة القبـــول حتى تحصـــل على بطاقة يقال لها: (النقاء والإخلاص لله) كما أن هذا النقاء لا يكفي إلا إذا كان العمل المصاحب له سليماً من التحريف (بدعة أو نقصاً)

يقول سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهذا الأخير هو ما جعل بريدة قلقاً على جهاده يوم خيبر. لقد خشي أن يكون شيئاً من الرياء قد تســـرب إلى صفاء نيته، فأفسده وأحبط عمله؟ رقابة وضعها الإسلام داخل أعمـــاق أتباعه المخلصين، توجه أعمالهم لتبقى نقية بالتوحيد، وكما خشـــي بريدة من انهيار عمله بسبب شعوره بالتفوق على الآخرين، فإن رجلاً آخر لم تسعفه نيته عندما لوثها بتصرف لا يليق بمسلم.

إنه ذلك البطل الجريح الذي يعاني آلاماً شديدة من جراحه في المعركة، فعندما جن عليه الليل.. جن جنونه من جرحه وآلامه، فأراد أن يطلق رصاصة العذاب على تلك الآلام.. أراد أن يضع حداً لمعاناته، لكنه أساء العمل فحطم في الليل ما أنجزه في النهار.

يقول أبو هريرة: (شـــهدنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر، فقال -يعني لرجل يدعي الإسلام-: هذا من أهل النار.

فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شـــديداً، فأصابته جراحة فقيل: يا رســـول الله، الرجل الذي قلت له: إنه من أهل النار، فإنه قاتل اليوم قتالاً شـــديداً وقد مات. فقال النبي ﷺ: إلى النار.

---

(١) ســـنده قوي رواه الروياني ١-٧٩ وابن عدي في الكامل ٢-٣٤ من طريق محمد بن مزاحم حدثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن ابن بريدة عن أبيه. مقاتل صدوق من رجال مسلم: التقريب ٥٤٤ وتلميذه بكيـــر صدوق وجرحه غير مفســـر. انظر ترجمته في التهذيب. وابن مزاحـــم أبو وهب صدوق من رجال التقريب ٥٠٦.

فـكاد بعـض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلـك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراح شـديدة. فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله. ثم أمر بلالاً، فنادى في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله عز وجل يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1].

هذا الرجل قتل نفسه بسهم، وذلك قتل نفسه بسيفه على أرض المعركة يوم أحد، مع أن كلاً منهما أبلى وتألق وحاز كلمات الإعجاب، لكن النهاية واحدة.. النار.

لأن من خرج للقتال في سبيل الله.. عليه أن ينفذ تعاليم من أخرجه، وإلا فليبحث له عن تبرير آخر لجهاده سوى سبيل الله.

ومن قتل نفسـه، فهو كمن قتل بريئاً دون ذنب، فلا مكان في الإسـلام لرصاصة الرحمة المزعومة، لأن المعاناة جزء من الجهاد، وهي سبب للتطهير والتكفير والخلاص من الذنوب، وما خرج المجاهد في سبيل الله إلا لذلك، والخروج للجهاد ليس سياحة بين الفنادق والمنتجعات والشواطيء، وليس تجوالا بين القرى والمدن.

إنـه أقصر الطرق للجنة، لكنه شـاق ومتعب ولذته لا تقـاوم، لذا فهو يحتاج إلى عزيمة وانضباط، فقد تتخلله الجراح والأسر والتعذيب.

إذا فعلـى من يختار هذا الطريق المختصر.. أن يختاره بكليته.. بحلاوته ومرارته. عندها فقط سيشعر أن أرض الجنة على بعد خطوات منه.

لا بد أن شـعوراً بالمرارة خالـج من رأى بداية هذا الرجل ونهايته، لكنها ليسـت كالمرارة التي يشعر بها اليهود الآن والحصار يخنق أنفاسهم. قد يشعر اليهود بالمرارة، لكن من المستبعد أن يشعروا بالندم على خياناتهم، لأن الخيانة جزء من عقيدتهم التي كتبوها وأدرجوها ضمن كتابهم المقدس. حتى الاستسلام الذي يطل من حصونهم الآن، ما هو إلا استسلام يغلف خيانة جديدة.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١١٤.

الاستسلام والخيانة

قرر اليهود أن يستسلموا بعد أن فقدوا كل شيء، لـ (أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع والنخل، فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء ويخرجون منها، فاشترط عليهم أن:

لا يكتموا شيئاً.

لا يغيبوا شيئاً.

فإن فعلوا ذلك فلا ذمة لهم ولا عصمة.

فغيبوا مسكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

فقال رسول الله ﷺ لعم حيي: ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب.

فقال ﷺ: العهد قريب، والمال أكثر من ذلك. فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام فمسه بعذاب، وقد كان حيي قبل ذلك قد دخل خربة، فقال: قد رأيت حيياً يطوف في خربة هاهنا.

فذهبوا، فطافوا، فوجدوا المسك في خربة. فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي حقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم للنكث الذي نكثوه، وأراد أن يجليهم منها فقالوا يا محمد: دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها؟ ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، فكانوا لا يتفرغون أن يقوموا فأعطاهم خيبر)[1] لكن:

كيف يعطي النبي ﷺ خيبر لليهود

لقد قدم اليهود التماساً للنبي ﷺ لم يستعجل برفضه، بل وجده يعود على دولته بالفائدة، لاسيما وأن هناك ما يبرر قبوله، فأرجأ عليه السلام قرار الإجلاء إلى مدة مفتوحة على مصالح الدولة المسلمة.

---

(١) حديث صحيح رواه ابن حبان ١١-٦٠٧ وأبو داود (٣٠٠٦) وقد مر معنا قبل قليل.

قال عبد الله بن عمر: «كان رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها، وكانت الأرض لما ظهر عليها لليهود وللرسول وللمسلمين، فسأل اليهود رسول الله ﷺ أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر، فقال رسول الله ﷺ نقركم على ذلك ما شئنا»[1].

يصف ابن عمر إن ذلك حدث بعد أن نظر عليه السلام إلى رئيسهم المتحدث باسمهم نظرة تقرأ خارطة الخيانة في عالم اليهود، وألقى إليه بكلمات لا يصدق فيها إلا نبي.

قال له: «رسول الله ﷺ: كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة؟ فقال: كانت هذه هزيلة من أبي القاسم. قال: كذبت يا عدو الله»[2] تلك الكلمات الوقحة التي تلفظ بها ذلك اليهودي ما هي إلا بعض أنفاس اليهود متى ما أمنوا العقوبة، أما المؤمنون، فبعد أن تم لهم النصر.. ذهبوا يلقون عنهم عناء التعب، والبعض أنهكه الجوع، فذهب ليبحث عن لقمة لجوفه الخالي، لكن هؤلاء لم يجدوا سوى بعض الحمير التي وجدوها خارج المدينة، فقاموا بذبح بعضها، وألقوا لحمها في قدورهم. أحد هؤلاء اسمه: عبد الله يتحدث عن:

أكل لحوم الحمر الأهلية

يقول رضي الله عنه: «أصابتنا مجاعة يوم خيبر، ونحن مع رسول الله ﷺ، وقد أصبنا للقوم حمراً خارجة من المدينة، فنحرناها، فإن قدورنا لتغلي إذ نادى منادي رسول الله ﷺ»[3] بشيء أبقى البطون خاوية، فقد جاء فقال: «يا رسول الله أكلت الحمر. ثم جاء آخر فقال: يا رسول الله أفنيت الحمر.

فأمر رسول الله ﷺ أبا طلحة فنادى: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس أو نجس. فأكفئت القدور بما فيها»[4].

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٩.
(٢) صحيح البخاري ٢-٩٧٣ والقلوص هي الناقة.
(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥٣٨.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥٤٠.

امتثل الصحابة لرسول الله ﷺ، فقلبوا قدورهم واتجهوا إلى الخيل والبغال - وهي قليلة- علها تسد ما بهم من مجاعة.

يقول جابر بن عبد الله: «ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل»[1] لم يقتصر النهي على هذين النوعين من الحيوانات. لقد نهى ﷺ عن لحوم حيوانات أخرى، ونهى عن ممارسات أخرى.

فبعد أن قال عليه السلام إثر غزوة الخندق: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» وبعد صلح الحديبية ونزول سورة الفتح، وبعد فتح خيبر.

بدأ عملياً توجه الإسلام نحو العالمية

بعد أن ولد في مكة، ونهض من مهد المدينة.. ها هو الإسلام يتهادى نحو العالم.. نحو جهات الدنيا الفسيحة كلها. لم يعد الإسلام مقتصراً على المهاجرين والأنصار، ولا على المدينة فقط، ولا حتى على القرن الهجري الأول.

إنه للعالم.. للدنيا بأسرها، ولكل القرون. وما دام الإسلام بهذه المقاييس، فلا بد أن يقدم مشروعاً يتضمن حلول الحاضر والمستقبل مهما بلغت البشرية من المدنية أو التحضر والرقي.

خيبر اليوم هي إحدى نقاط الانطلاق نحو العالم.. نحو مشاكل العالم والإنسانية.. في خيبر لم يعد الإسلام مأخوذاً بالتطهير الفكري والعقائدي فقط.. في خيبر أبحر الإسلام إلى جزر عذراء، وأراض جديدة.. يقدم للبشرية مشروعه الجميل، ليكون للحياة طعم جميل ونظيف، ليكون للإنسان غذاء نقي ونظيف.

في خيبر قدم ﷺ قائمة ببعض الممنوعات من الأطعمة والممارسات.. ممنوعات تجعل صحة المسلم وحياته أكثر إشراقاً ونظافة وتحضرا.

يقول جابر: «لما كان يوم خيبر أصاب الناس مجاعة، فأخذوا الحمر الإنسية فذبحوها وملؤوا منها القدور، فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فأمرنا رسول الله ﷺ فكفأنا

---

(١) حديث حسن رواه أبو داود ٣-٣٥١ وغيره من طريق أبي الزبير عن جابر. أبو الزبير تابعي ثقة مدلس، لكنه لم ينفرد فقد توبع، تابعه التابعي الثقة أبو سلمة بن عبد الرحمن.

القدور فقال: إن الله عز وجل سيأتيكم برزق هو أحل لكم من ذا وأطيب من ذا، فكفأنا يومئذ القدور وهي تغلي، فحرم رسول الله ﷺ يومئذ الحمر الإنسية ولحوم البغال، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطيور، وحرم المجثمة والخلسة والنهبة»[1].

وقال الصحابي أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه: «غزونا مع رسول الله ﷺ خيبر والناس جياع، فوجدنا منها حمراً من حمر الأنس، فذبح الناس منها، فحدث رسول الله ﷺ، فأمر عبد الرحمن بن عوف فأذن في الناس: إن لحوم الحمر الإنسية لا تحل لمن شهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله،

فكفأوا القدور بما فيها، ووجدوا في جوانبها بصلاً وثوماً، فقال رسول الله ﷺ: من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا، وقال رسول الله ﷺ: لا تحل النهبة ولا كل ذي ناب من السباع، ولا تحل المجثمة»[2].

من تأمل قائمة الممنوعات تلك يجدها بوابة لكثير من المتاعب الصحية، لا سيما مع تمدن البشرية القادم، وتكاثرها المتصاعد، مما يجعل التأكيد على جودة الطعام وسلامته أمراً لا يقبل التهاون، بل إن الطب ينصح بالاستغناء عن قائمة طويلة من الأطعمة الطيبة إرضاءً للصحة، فكيف إذا كانت هذه الأطعمة تشتمل على الحمار والبغل اللذين لا يباليان بما يدخل جوفيهما من المزابل وغيرها، أو الحيوانات المفترسة التي لا تفرق عندما تجوع بين الجيفة وغيرها، مما يجعلها جميعاً مستودعاً للأوبئة المجهولة والخطيرة، أما المجثمة ففي تحريم أكلها احترام لحقوق الحيوان.. في وقت كان العالم لا يرى للحيوان حقوقاً.. حرم الإسلام المجثمة التي يتسلى الجهلة بربطها، وجعلها هدفاً للتدريب على الرماية حتى الموت، ولو كانوا يدعون أنهم سيأكلونها في النهاية. ويدخل في المجثمة تلك الثيران التي يتسلى النصارى بتعذيبها ومصارعتها، وتمزيق أجسادها بالرماح والسيوف، فالغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام.

---

(١) حديث حسن ورجاله ثقات: رواه أحمد ٣-٣٢٣ حدثنا هاشم بن القاسم ثنا عكرمة يعني ابن عمار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وسنده ضعيف لاضطراب رواية عكرمة عن يحيى، التقريب ٣٩٦ وللحديث طرق عنده ٤-١٩٤ والطبراني في الكبير ٢٢-٢١٦ ومسند الشاميين ٢-١٨٣ وهو التالي: عن بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن أبي ثعلبة ولألفاظ الحديث شواهد صحيحة متفرقة.

(٢) انظر ما قبله.

أما النهب والسلب فمن الجرائم الكبيرة التي تنتهك خصوصيات الناس وأموالهم، وهي أشياء لا يجوز المساس بها مهما كانت الأسباب.

امتثل الصحابة لأن الذي يتحدث نبي مرسل، ولأنه لا ينطق عن هوى أو رؤية شخصية، ثم قاموا بالبحث عن أي شيء يطفئ لهب الجوع وسعيره، فلم يجدوا سوى الأرض.. سوى النبات.

قال أبو سعيد: « فتحت خيبر، فوقعنا أصحاب رسول الله ﷺ في تلك البقلة الثوم، والناس جياع فأكلنا منها أكلاً شديداً، ثم رحنا إلى المسجد، فوجد رسول الله ﷺ الريح فقال: من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنا في المسجد.

فقال الناس: حرمت، حرمت.

فبلغ ذاك النبي ﷺ فقال: أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي، ولكنها شجرة أكره ريحها»[1] «فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[2] إذاً فالزينة في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[3] ليست مقتصرة على اللباس فقط، فالرائحة الزكية من أجمل الأشياء التي يفضل اصطحابها إلى المسجد، ومن أسرار عظمة الإسلام تسليطه الأضواء على الجمال مهما كانت الأجواء معتمة، والعقول مشغولة والنفوس مشحونة. فالإنسان في ظرف كظرف الحرب والاجتلاد أو الحماس تمنحه نفسه، ويمنحه حماسه مسوغات عديدة للقيام بممارسات قد تؤلم غيره، فيتجاوز أهداف خروجه.

هنا يتميز الإسلام عن غيره من الأديان، فلا مذابح جماعية.. لا انتقام.. لا تهور.. لا سلب، ولا نهب، بل انضباط والتزام وإلا فإنه ليس بجهاد. إنه في هذه الحالة اعتداء والموت فيه ليس شهادة.

هاهو الجوع مرة أخرى يرغم بعض الصحابة على البحث المرير بعد نفاذ الصلح، لكن النتيجة كانت أكثر مرارة.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣٩٥/١ .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣٩٥/١.

(٣) الأعراف: ٣١.

صحابي اسمه: ثعلبة بن الحكم قال: «أصبنا يوم خيبر غنماً فانتهبها الناس، فجاء النبي ﷺ وقدورهم تغلي فقال: ما هذا..؟

فقالوا: نهبة يا رسول الله. قال: اكفؤوها، فإن النهبة لا تحل. فكفؤوا ما بقي»[1] لأنها ليست لهم، والجوع ليس مبررا لنهب أموال الغير.

ترى لو كان هؤلاء القوم من غير المسلمين.. هل يمكن السيطرة عليهم..؟ هل يمكن ردعهم عن السلب والنهب والاغتصاب.. اسألوا التاريخ والحاضر عن المحاربين من غير المسلمين، فالإجابة فواجع.

كان اليهود غير بعيدين عن تلك المشاهد، فتحركت النخوة داخل نفوسهم. كان كرماً، لكنه:

كرم بنكهة يهودية

تحركت عواطفهم، ورشّحوا لإثبات تلك العواطف امرأة قامت بشوي شاة، ثم قدمتها للنبي ﷺ. الغريب في الأمر والمحير كذلك هو حرص المرأة على أن تلك الشاة هي مجرد هدية.. لا صدقة، حتى تتأكد من عدم رفض النبي ﷺ لها، لأن الله قد حرم عليه الصدقة.

يقول كعب ابن مالك: «إن امرأة يهودية أهدت إلى رسول الله ﷺ شاة مصلية بخيبر، فقال لها: ما هذه؟ قالت هدية وحذرت أن تقول من الصدقة، فأكل وأكل أصحابه ثم قال لهم: أمسكوا»[2]

أما لماذا أمرهم بالتوقف عن الأكل..؟ فتلك معجزة إلهية، فبعد أن «أكل رسول الله ﷺ منها وأكل القوم فقال: ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة»[3]

---

(١) سنده قوي رواه عبد الرزاق ١٠-٢٠٥ وغيره من طريق سماك بن حرب عن ثعلبة بن الحكم قال: وسماك تابعي صدوق من رجال مسلم.

(٢) المعجم الكبير ١٩/٧٠-١٣٧ ومعمر بن راشد في الجامع ١١-٢٨ طريق الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه والزهري تابعي ثقة وإمام معروف.

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود٤-١٧٣ وغيره من طريق يونس وشعيب ابن أبي حمزة وغيرهما عن الزهري كان جابر يحدث. الزهري ثقة وروايته عن جابر على شرط البخاري.

خيانتان لليهود في اليوم نفسه الذي عاهدوا فيه النبي ﷺ.. في الأيام نفسها التي ناشدوا فيها هذا النبي أن يبقي على أرواحهم، وأن يقبل شراكتهم الاقتصادية تلك، ويبدو من سلسلة الغدر اليهودي التي حدثت بعد وصول النبي عليه السلام إلى المدينة أنها تشكل نسبة مرتفعة من دمائهم، ومع هذا فقد حاول ﷺ استثمار حالة التوجس والخوف من انكشاف جريمتهم.. حاول استثمارها لصالحهم هم، فهم وإن صدئ معدنهم، إلا أنهم لا يزالون بشراً أحياء. وهاتان الصفتان تفتحان للمسلم فرصاً للدعوة.

حاول ﷺ من خلالها أن يثبت لعنادهم أنه نبي مرسل، وأنه لا عذر لهم في رفض الإسلام سوى العناد والمكابرة.

يقول أبو هريرة: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيه سم، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود.

فجمعوا له فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا أبونا فلان.

فقال رسول الله ﷺ كذبتم بل أبوكم فلان. فقالوا: صدقت وبررت. فقال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ: مَنْ أهل النار؟

فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً.

ثم قال لهم: فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم. فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ فقالوا: نعم. فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذاباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك»[1].

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.

ها قد تبين أنه نبي وأنه ليس بكذاب.. ثم ماذا؟

لا شـــيء.. لم يسلم أولئك اليهود.. لم يتركوا عنادهم وتكذيبهم، لكن النبي ﷺ لم يتركهم.. هناك جريمة، وهناك مجرمون، وهناك صحابة تغلغل الســـم في أحشـــائهم، وهم الآن على فراش المرض، وهناك تشريع جنائي عادل.

طلب ﷺ إحضار الجاني، فأحضرت المرأة المجرمة، وتمت مساءلتها علنياً من قبل النبي ﷺ، «فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردت لأقتلك. قال: ما كان الله ليسلطك على ذاك أو قال عليَّ. قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا»[1].

لأنـــه لم يمت أحد من الصحابـــة حتى الآن من ذلك الســـم، وإن كان له أثر على لهوات النبي ﷺ لدرجة أن أنس رضي الله عنه كان يقول: «فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ»[2].

لكن، وبعد أيام تمكن السم من أحد الصحابة واسمه (بشر) «فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري، فأرسل إلى اليهودية:

ما حملك على الذي صنعت؟ قالت: إن كنت نبياً لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك.

فأمـــر بها رســـول اللـــه ﷺ فقتلت»[3] بعـــد أن عفا عنها رغم شـــروعها في قتل رأس الدولة الإســـلامية، لكن وبعد موت بشـــر رضي الله عنه أصبحت قاتلة متعمدة، فاســـتحقت عقابها في القرآن، بل وفي كتاب التوراة التي تؤمن به، ولم يشمل العقاب أولئـــك المتآمرين معها، علَّ العفو يجدي في محو ثقافة الحقد والكراهية لديهم، ومن أجل ذلك قام ﷺ بعمل حاول به جمع قلوب اليهود حوله.. حينما اســـتقر قمراً وعزاءً بين يدي إحدى فتياتهم الحزينات.

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٤-١٧٢١).

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود -٤٥١٢ وأحمد (٣-٢٤٢) والدارمي (١-٦٤) والطبراني (٢-٣٤) والبيهقي (٨-٤٦) من طريق حماد بن ســـلمة وجعفر بن عون وغيرهما من الثقات عن محمد بن عمرو بن علقمة الليثي وهو حســـن الحديث من رجال الشيخين.. التقريب (٢-١٩٦) وشيخه هو التابعي الثقة.. أبو سلمة بن عبد الرحمن الزهري وهو إمام مكثر التقريب (٢-٤٣٠) وقد صحح الإمام الألباني رحمه الله هذا الحديث.

القمر يستقر في حجر الفتاة

تلـك الفتاة التي رأت تلـك الرؤيا فلكمها زوجها الغبي بعدمـا أخبرته بما رأت.. هي اليوم حزينة جداً، فقد قتل زوجها قبل الصلح، لأنه عاهد النبي عليه السـلام على قول الحقيقة أو الموت والسـلب. كانت الفرصة أمامه لينجو بنفسه، لكن الخيانة داخله كانت أكبر من أن يخفيها.. كذب على رسـول الله ﷺ، فأطلعه الوحي على ذلك.. هذه الفتاة تشعر بحزن شديد وذل أشد، فهي الآن سبية وهبها النبي عليه السلام لصاحبه دحية الكلبي، وهي تشـعر ببغض شـديد لهذا النبي، فهو لم يقتل زوجها فقط، بل إنها تقول لمن يسـمعها: «كان رسـول الله ﷺ مـن أبغض الناس إلي، قتـل زوجي وأبي»[1] لعلكم تذكرون هذه الفتاة عندما كانت طفلة مدللة.. تلك التي كانت تحدثنا عن وصول النبي عليه السـلام إلى المدينة، وكيف خسـرت ذلك الدلال مـن أبيها وعمها في ذلك اليوم.. عندما شـاهدا النبي ﷺ، فعادا كسلانين ثقيلين من الهم على خروج النبوة من بني إسـرائيل، وانتقالها إلى بني إسماعيل، وهاهي اليوم تحصد أحقاد والدها وعمها وزوجهـا ومؤامراتهـم المتكررة. فقد (جـاء دحية فقال يا نبي اللـه أعطني جارية من السبي، قال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير! لا تصلح إلا لك. قال: ادعوه بها. فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها)[2]

أراد ﷺ اعتاق هذه الأميرة، أو مصاهرة اليهود في آخر محاولة لاستمالتهم إلى الإسلام، لكن يبدو أن دحية يشـعر بأنها ليسـت كأي فتاة من السبي، فقد جمعت المجد من أطرافه. فهي سـيدة بني النضير، وهي سـيدة قريظة أيضاً، وهي قبل ذلك ابنة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام، وقد حظيت إلى ذلك بجمال أخاذ، فأراد ﷺ إرضاء صاحبه دحية.

---

(١) سـنده صحيح رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤-٦٧) والبيهقي (٩-١٣٧) وابن حبان (١١-٦٠٧) من طريق أبي الزرقاء وابن غياث وعفان قالوا حدثنا حماد بن سـلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن بن عمر قال وهذا سند صحيح مر معنا في أول هذا الجزء..

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١-٤٥).

يقــول أنس بن مالك رضي الله عنه: «صارت صفية لدحية في مقســمه، وجعلوا يمدحونها عند رســول الله ﷺ ويقولون: ما رأينا في الســبي مثلها. فبعث إلى دحية فأعطاه بها ما أراد»[1] لقد «اشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس»[2].

فقد عرف عليه الصلاة والسلام لهذه المرأة الشريفة قدرها، وقدر حزنها وشعورها بالمرارة، فتوجه إليها كالمواســاة.. يســليها.. يقنعها بنبوته.. يعتذر إليها ويكشــف عن عقليتها ذلك الضباب اليهودي الأســود، حتى تلاشــى وتلاشى معه حزنها وكراهيتها، فإذا الدنيا صباح بالإســلام، وربيع بمحمد عليه الســلام، فباحت صفية بذلك النور الــذي انبجس في أعماقها وقالت: «وكان رســول الله ﷺ مــن أبغض الناس إلي، قتل زوجــي وأبي وأخي، فما زال يعتذر إلي ويقــول: إن أباك ألَّبَ علي العرب، وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفســي»[3] «واصطفى رســول الله ﷺ صفية بنت حيي، فاتخذها لنفســه وخيَّرها أن يعتقها وتكون زوجته، أو تلحــق بأهلها. فاختارت أن يعتقها وتكون زوجتــه»[4] دون أن يكرههــا، أو يغصبها، بل لقد رفضت العودة إلى أهلها وديارها رغم حبها وشــوقها لهم، لأنها أفاقت في عالم هذا النبي على شيء أذهلها عنهم، فتوجهت معــه مأخوذة بهــذا الاعتذار النبوي الجميل، الذي لم يصادر مشــاعرها.. لم يصادر إحساسها نحو من أحبتهم وعاشت معهم، ولم يجبرها باسم النبوة على التنكر لآلامها، فهــو الحب الذي يذيب الحرقــة والآلام، لكن النبي ﷺ لم يــزف إليها، لأن لها زوجاً ســابقاً لا بد من احترام نســبه، وعدة لا بد أن تمضيها حتى يتم التأكد من خلوها من حمل من زوجها السابق.. احتراماً لحق ذلك الزوج مهما كان دينه وحفظاً لنسب الطفل البــريء. لكن أحد الصحابة رضي الله عنهم لم يعبأ في علاقته بإحدى النســاء بهذه العدة، فارتكب أمراً أغضب النبي ﷺ غضباً شديداً.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢-١٠٤٧).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم.

(٣) ســنده على شرط مسلم رواه أحمد ٣-١٣٨ وابن حبان ٦-١٩٤ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر قال سمعت ثابتاً يحدث عن أنس. عبد الرزاق ومعمر من الثقات المعروفين من رجال الشيخين التقريب ٣٥٤ و٥٠٤ وثابت البناني تابعي ثقة. التقريب ١٣٢.

(٤) سنده على شرط مسلم رواه الإمام أحمد (٣-١٣٨) وهو الحديث السابق.

احترام السبايا

يقول أحد الصحابة وهو أبو الدرداء «إن النبي ﷺ مر على امرأة مجح، وهي على باب خباء أو فسطاط فقال: لمن هذه..؟

فقالوا: لفلان. قال: أيلم بها؟ قالوا: نعم.

قال: لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه قبره، فكيف يستخدمه وهو يعدوه في بصره وسمعه؟ كيف يرثه وهو لا يحل له»[1].

أما عن العلاقة مع المرأة فقد حدث تطور في أحكامها، لتتناسب مع القادم والجديد من حياة البشر، مما يجعل من هذا التشريع منهجاً يضمن للأسرة استقراراً أفضل.

هـا هو علي بن أبي طالب.. فارس خيبر، يعود من قرية قريبة تدعى (فدك) بعد أن فتحها وصالح أهلها.. هاهو يخبرنا عن

حكم جديد لزواج المتعة

يقول علي رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر»[2] وهو زواج مؤقت يختلف عن الزواج المعروف، لأنه زواج محدد بمدة يتفق عليها الزوج والزوجة، بعكس الزواج الطبيعي والذي لا يجوز فيه تحديد المدة، وقد نهى ﷺ عنه لأنه زواج لا يرصد حساباً للأولاد، ولا للتربية، وليس له أي هدف اجتماعي سوى إشباع الغريزة. مما قد يمسخ المرأة مستقبلاً إلى جهاز استمتاع رخيص للرجل.. يستعمله ثم يبحث عن أقرب سلة مهملات ليرميه فيها، والمرأة في الإسلام أَجَلُّ وأكرم من ذلك، لذلك جاء النهي عن المتعة، وقد نهى عليه السلام عنها على أرض خيبر بشكل غير حاسم، أي نهي كراهية لا تحريم، نظراً لحاجة الأنفس إلى التدرج.

مادام الأمر قد امتد إلى الحديث عن الزواج، فيبدو أن الأمور قد استقرت، والنفوس قد اطمأنت على أرض خيبر، وهذا ما يتضح في بعض الممارسات المالية التي يقوم بها بعض الصحابة الآن مع بعض اليهود، حيث يمارسون:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢-١٠٦٥) وابن أبي شيبة (٤-٢٩) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.

البيع والشراء على أرض خيبر

هاهو الصحابي فضالة بن عبيد يشتري قلادة من خرز وذهب، فيقوم بفصل الذهب عن الخرز، ليعلم مقدار الذهب فيها، وبعد فصلها توجه إلى النبي ﷺ فسأله وقال: «اشتريت يوم خيبر قلادة باثني عشر ديناراً فيها ذهب وخرز، ففصلتها فوجدت فيها أكثر من اثني عشر ديناراً؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: لا تباع حتى تفصل»[1]

فشراء الذهب بالذهب لا يجوز إلا وزناً بوزن، ويداً بيد، وإلا تحول البيع إلى ربا يسحق الفقراء والاقتصاد، ويجر للفقر والرذيلة والاستغلال في المجتمع، وأرض خيبر قلعة من قلاع الربا، فاليهود زعماء الربا وعرابو الاستغلال للفقراء على وجه الأرض، وحتى لا يتلوث المتوضئون بأخلاق اليهود المرابين، وحتى يبقى للجهاد مشروعه النقي.. يكمل فضالة بن عبيد ويقول: «كنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر نبايع اليهود الوقية الذهب بالدينارين والثلاثة.

فقال رسول الله ﷺ: لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا وزناً بوزن»[2]. وأثناء فترة الاسترخاء تلك قسم ﷺ الغنائم على المجاهدين.

يقول أحد الصحابة: «افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط»[3] عدا ما أخرجه النبي ﷺ من كنز حيي بن أخطب المدفون، وأثناء توزيع الغنائم وصلت سرية من المجاهدين كانت تقوم بمهمة عسكرية على أرض نجد.. حددها ﷺ لأصحابه، وكان قائد تلك السرية يدعى (أبان بن سعيد بن العاص) وقد هدى الله أبان للإسلام بعد أن خاض معركة ضد المؤمنين، وقد استشهد في تلك المعركة صحابي كريم يدعى (ابن قوقل).

لكن ما علاقة ابن قوقل رضي الله عنه بغنائم خيبر..؟

أبو هريرة كان هناك.. يطلب من النبي ﷺ شيئاً من الغنائم لحظة وصول أبان، وقد وصف وصول تلك السرية بقوله: «بعث رسول الله ﷺ أبان على سرية من المدينة

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٢١٣.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٢١٤.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٧.

قِبَلَ نجد، فقدم أبان وأصحابه على النبي ﷺ بخيبر بعد ما افتتحها، وإن حزم خيلهم لليف»[1] وكان لأبي هريرة مع أبان حديث طغت فيه العاطفة على العقل قليلاً، لكن الأمر حسم، لأنه بحضرة النبي ﷺ.

يتحدث أبو هريرة فيقول: إنه «أتى النبي ﷺ فسأله، قال له بعض بني سعيد بن العاص: لا تعطه. فقال أبو هريرة: هذا قاتل بن قوقل؟ فقال: واعجباه لوبر تدلى من قدوم الضأن»[2]

وكان لأبان رد يفيض بالاعتذار الجميل عن أخطاء الماضي المؤسف.

يقول أبان: إنه «أقبل إلى النبي ﷺ فسلم عليه فقال أبو هريرة: يا رسول الله هذا قاتل بن قوقل. فقال أبان لأبي هريرة: واعجباً لك وبر تدأدأ من قدوم ضأن، ينعى على امرئ أكرمه الله بيدي، ومنعه أن يهينني بيده!»[3] «فقال النبي ﷺ: يا أبان اجلس. فلم يقسم لهم»[4].

ثم بدأ ﷺ بتوزيع الغنائم بنسبة واحد إلى ثلاثة.. يعطى صاحب الفرس ثلاثة دراهم، والذي لا يملك فرساً درهماً واحداً، نظراً لما بذله صاحب الفرس من جهد ومال.

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين وللراجل سهماً»[5].

أما الأرقاء، فهذا أحدهم واسمه (عمير) يحدثنا حول رقة نبيه في تعامله معه، بعد أن علم أنه رقيق فيقول: «شهدت مع سادتي خيبر، فأمر بي رسول الله ﷺ فقلدت سيفاً، فإذا أنا أجره، فقيل له: إنه عبد مملوك. فأمر لي بشيء من خرثى المتاع[6]، وعرضت عليه رقية كنت أرقى بها المجانين في الجاهلية قال: اطرح منها كذا وكذا وارق بما بقي»[7] فالرقية علاج، والعلاج لا يجوز إلا بأشياء مباحة، وقد حرم

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٩.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨. ومسلم (١٧٦٢).
(٦) أي أثاث البيت.
(٧) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٢٢٣ وغيره من طرق عن محمد بن زيد بن المهاجر ومداره عليه عن عمير مولى أبي اللحم. وابن زيد ثقة من رجال مسلم ٤٧٩ وشيخه صحابي.

الإســـلام أي علاج يؤدي إلى ضرر في العقيـــدة أو في الصحة، وفي حالة كون الرقية أدعية وتعاويذ فقط.. يكون الأمر أخطر على العقيدة، التي من أجلها بعث كل الأنبياء والرســـل، لأن تأثير تلك الرقيـــة غير منظور، ولا يخضع لتجـــارب المعامل، ولا يتكون نتيجة تفاعل كيميائي مدروس.

فـــي هذه الحالة يكون الشـــفاء أشـــبه بالمعجزة.. عندها يتعلـــق المريض الجاهل بصاحب الرقية، مثل تعلق الغريق بأي شـــيء مهمـــا كان ضعيفاً، وعندما تصل الأمور إلـــى هذه المســـافة.. تنفتح بوابات الجهل للخيال المريض، ويبدأ التعلق بالأســـباب، لا بخالق الأســـباب ســـبحانه، ويجد الساحر والمشـــعوذ ألف طريق للتعشيش في مخيلة السذج والبسطاء، فتنصب خيام الشرك من جديد باسم الرقية والعلاج.

ذلك الرقيق الجميل لم يمنعه رقه أن يحتاط لدينه، وأن يسأل عن كل درهم يدخل جيبه، وكل كلمة يتفوه بها.

رقيق آخر غفل عن هذا المنهج للحظات، فماذا كانت النتيجة..؟

حدث ذلك أثناء توزيع الغنائم، حيث امتدت يد خادم جديد لرسول الله ﷺ يدعى (مدعم) إلى قطعة قماش من الغنائم، فاســـتلها، ثم أخفاها مع أمتعته الشخصية. أي أنه غلها دون إذن من قائده النبي ﷺ... أما نتيجة هذا العمل اليســـير في نظر أناس فسنعرفها بعد قليل.

ماذا عن النساء..؟

النساء لم يكنَّ بعيدات عن الرجال تكريماً وتقديراً، فقد «قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر لسهلة بنت عاصم بن عدي، ولابنة لها ولدت»[1].

تم الانتهـــاء قبل قليل من توزيع الغنائم، وبدأ التجهيـــز لأمور عديدة منها: تعيين أمير يتولى إدارة شؤون خيبر.

---

(١) ســـنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ٢-٨٢ حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا الحســـن ابن الربيع الكوفي ثنـــا بـــن المبارك عن ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن ثابت بن الحارث الأنصاري. وقد حدد النقـــاد رجالاً احتفظوا بوثائق بن لهيعة الصحيحة قبـــل اختلاطه منهم الإمام الثقة عبد الله بن المبارك. أما شـــيخه الحارث فتابعي ثقة ثبت عابد. التقريب ١٤٥ وشـــيخ الطبراني وشـــيخ شيخه ثقتان التقريب ١٦٦ والبلغة ٢٢٨.

يقــول أبو ســعيد الخدري وأبو هريرة: «إن رســول الله ﷺ بعــث أخا بني عدي الأنصاري واستعمله على خيبر»[1]

ومنهــا: التوجه نحو (وادي القرى) لكن وقبــل أن يغادر ﷺ أرض خيبر نوى أحد الصحابة مفارقته والعودة إلى مكة، ولم يكتف بذلك بل قرر أن ينتقص من النبي ﷺ، ولم يكتف أيضاً بذلك، بل ذهب إلى النبي نفسه واستأذنه. فما رده ﷺ على ذلك؟

صحابي يعود إلى قريش

وشــروط صلــح الحديبية تمنحه هــذا الحق، أما النبي ﷺ فيشــجعه على ذلك ويؤيده. أنس بن مالك كان حاضراً.. يتحدث عن ذلك ويقول: «لما فتح رســول الله ﷺ خيبر قال (الحجاج بن علاط): يا رسول الله، إن لي بمكة مالاً، وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئاً..؟

فأذن له رســول الله ﷺ أن يقول ما شــاء، فأتى امرأته حين قدم فقال: اجمعي لــي ما كان عندك، فإني أريد أن أشــتري من غنائم محمــد ﷺ وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم.

ففشا ذلك في مكة، وانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، وبلغ الخبر العباس فعقر وجعل لا يســتطيع أن يقوم»[2] «ثم أرســل غلاماً إلى الحجاج بن علاط: ويلك ما جئت به، وما تقول فما وعد الله خير مما جئت به..؟

قال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل الســلام، وقل له: فليخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره.

فجاء غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشــر يــا أبا الفضل، فوثب العباس فرحاً حتــى قبل بين عينيــه، فأخبره ما قال الحجاج فأعتقه، ثم جــاءه الحجاج فأخبره أن رســول الله ﷺ قد افتتح خيبر وغنم أموالهم، وجرت سهام الله عز وجل في أموالهم،

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٦٧٥.

(٢) وضعت القوس لوجود فاصل مرسل.

واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، فاتخذها لنفسه، وخيرها أن يعتقها وتكون زوجتــه، أو تلحق بأهلها..؟ فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته، ولكني جئت لمال كان لي ههنا أردت أن أجمعه فأذهب به، فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي أن أقول ما شئت فأخف عني ثلاثاً، ثم اذكر ما بدا لك.

فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع، فجمعته فدفعته إليه ثم استمر به، فلمــا كان بعد ثلاث أتى العباس امــرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك فأخبرته أنه قد ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شــق علينا الذي بلغك. قال: أجل لا يخزني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رســول الله ﷺ وجرت فيها ســهام الله واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه، فإن كانــت لك حاجة في زوجك فالحقي به. قالت: أظنك والله صادقاً. قال: فإني صادق، الأمر على ما أخبرتك.

فذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل. قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ما له وما كان له من شيء ههنا ثم يذهب.

فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر فسر المسلمون، ورد الله ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشــركين»[1] بعدما علموا بانتصارات جيش الإسلام على أرض خيبر وفدك. وهاهو ذلك الجيش المؤمن يستعد لـ:

---

(١) على شــرط مسلم رواه عبد الرزاق ٥-٤٦٦ ومن طريقه أحمد ٣-١٣٨ وغيره من طريق معمر قال سمعت ثابتــاً يحدث عن أنس. يقول ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ٤-٢١٧: هذا الإســناد على شــرط الشيخين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى النسائي. ولي ملاحظة على هذا القول: صحيح أن رجاله رجال الشــيخين، لكن من خلال الاســتقراء يبدو أنه على شرط مسلم فقط، ويبدو أن الإسناد ليس بصحيح وإن كان على شــرط مســلم، لأن رواية معمر عن ثابت فيها شيء، وللتفصيل راجع صحيح الموسوعة.

الرحيل.. وقصة النوم عن الصلاة

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة، حتى إذا أدركه الكرى عرس وقال لبلال: أكلأ لنا الليل. فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً، ففزع رسول الله ﷺ فقال: أي بلال. فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، بنفسك. قال: اقتادوا. فاقتادوا رواحلهم شيئاً، ثم توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن الله قال: أقم الصلاة لذكري»[1] وقد ذكر الفارس أبو قتادة تفاصيل أخرى ربما كانت أثناء تلك الرحلة في

قصة النوم والعطش والمعجزات

يقول أبو قتادة: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم، وتأتون الماء إن شاء الله غداً.

فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد.

قال أبو قتادة: فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى إبهار الليل وأنا إلى جنبه، فنعس رسول الله ﷺ فمال على راحلته، فأتيته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، ثم سار حتى تهور الليل مال عن راحلته، فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة هي أشد من الميلتين الأوليين حتى كاد ينجفل، فأتيته فدعمته فرفع رأسه فقال: من هذا؟ قلت: أبو قتادة. قال: متى كان هذا مسيرك مني؟ قلت: مازال هذا مسيري منذ الليلة.

قال: حفظك الله بما حفظت به نبيه. ثم قال: هل ترانا نخفى على الناس؟ ثم قال: هل ترى من أحد؟ قلت: هذا راكب، ثم قلت: هذا راكب آخر، حتى اجتمعنا فكنا

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٧١.

سبعة ركب، فمال رسول الله ﷺ عن الطريق فوضع رأسه، ثم قال: احفظوا علينا صلاتنا. فكان أول من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره، فقمنا فزعين، ثم قال: اركبوا. فركبنا، فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل، ثم دعا بميضأة كانت معي، فيها شيء من ماء فتوضأ منها وضوءاً دون وضوء.

وبقي فيها شيء من ماء، ثم قال لأبي قتادة: احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ. ثم أذن بلال بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ ركعتين، ثم صلى الغداة، فصنع كما كان يصنع كل يوم.

وركب رسول الله ﷺ وركبنا معه، فجعل بعضنا يهمس إلى بعض ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ ثم قال: أما لكم فيَّ أسوة؟ ثم قال: أما إنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى، فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها. فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها، ثم قال: ما ترون الناس صنعوا؟

ثم قال ﷺ: أصبح الناس فقدوا نبيهم فقال أبو بكر وعمر: رسول الله ﷺ بعدكم لم يكن ليخلفكم، وقال الناس: إن رسول الله ﷺ بين أيديكم، فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا. فانتهينا إلى الناس حين امتد النهار وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله هلكنا عطشنا..؟ فقال: لا هلك عليكم. ثم قال: أطلقوا لي غمري[1]. ودعا بالميضأة فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم، فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضأة تكابوا عليها، فقال رسول الله ﷺ: أحسنوا الملأ كلكم سيروى. ففعلوا. فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ، ثم صب رسول الله ﷺ فقال لي: اشرب. فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله. قال: إن ساقي القوم آخرهم شرباً. فشربت وشرب رسول الله ﷺ، فأتى الناس الماء جامين رواء»[2] ثم ارتحلوا متوجهين:

---

(١) أي اتركوا لي إنائي أو أعطوني إياه.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٧٣

وهو مكان قريب من مدائن صالح، وله اسم آخر هو (قرح)، ويبدو أن هذا الوادي مليء بالحدائق والنخيل واليهود.

وصل النبي ﷺ وأصحابه، ووصل معه صاحبه سلمان الفارسي وذكرياته المريرة على أرض هذا الوادي، فقد وصل إليها منذ سنين مكبلاً بالرق والمرارة، بعد أن غدر به تجار من بني كلب.. سرقوا بقراته، وباعوه إلى أحد اليهود الذين يسكنون هذا الوادي المليء بالنخل.. انتظاراً لنبي تبشر به التوراة.

يقول سلمان رضي الله عنه وهو يتحدث عن مغادرته لأرض عمورية بعد موت كاهنها الصالح: «لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي. فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله، فلما حضر[1] قلت له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟

قال أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

ثم مات وغيب ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من (كلب) تجار فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم.

فأعطيتهموها، وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي، فكنت عنده عبداً، ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ولم يحق في نفسي، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة»[2] حيث تتوافر النخل واليهود هناك أيضاً، فالنخل في جزيرة العرب، والنخل في التوراة.. تبشر اليهود بالنبي.

---

(١) حضره الموت.

(٢) السيرة النبوية ٢-٤٤ بسند صحيح وقد مر تخريجه عند الحديث عن إسلام سلمان.

وهاهو النبي، وهاهي النخيل، وتحت كل نخلة في جزيرة العرب تجد يهودياً.. كان ذلك في الماضي قبل أن يعرف اليهود أن هذا النبي من سلالة إسماعيل لا من سلالة إسحاق، أما اليوم فتحت كل نخلة خيانة، ووادي القرى ممتلئ باليهود.

توقف فيه النبي ﷺ فلم يجد مقاومة تذكر إلا سهماً طائشاً أصاب خادمه مدعم، فكان موت مدعم درساً لهذا الجيش المؤمن.. رغم أنه سهم طائش لا يُعرف من أرسله.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى، ومعه عبد له يقال له (مدعم) أهداه له أحد بني الضباب، فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد. فقال الناس: هنيئاً له الشهادة. فقال رسول الله ﷺ: بل والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً.

فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته[1] فقال رسول الله ﷺ: شراك أو شراكان من نار»[2]

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد. حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد.

فقال رسول الله ﷺ: كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة. ثم قال رسول الله ﷺ: يابن الخطاب اذهب فناد في الناس: أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون،

فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[3]

هذا هو الغلول.. أخذ شيء من مال الدولة المسلمة، أو ميزانيتها دون إذن مهما كانت المبررات.. فحتى هذا الرجل الفقير المجاهد لم يسلم من نار الغلول، وهو المجاهد الذي خرج لبذل روحه لله، فكيف بمن يأخذ شيئاً وقت السلم..؟ وكيف بمن يأخذ شيئاً لا لحاجة، بل لمجرد زيادة ثروته..؟ سواء كان بالسرقة أو النهبة أو السلطة أو القوة،

---

(١) أي أخذته من الغنائم دون إذن.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٧.

(٣) صحيح مسلم ١-١٠٧.

أو حتى على شكل هدايا يتلقاها بصفته موظفاً في الدولة؟! فالنبي ﷺ يقول: «هدايا العمال غلول»[1]

الإســـلام جاء لإنصاف الفقراء، لكنه لم يأت للمزايدة بقضاياهم وأزماتهم، فعلى الفقراء كغيرهم مسؤولية، وعليهم النهوض بها، فالجنة مفتوحة للجميع، وكذلك جهنم.. جهنم ترحب بمن يريدها.. وبهذا المنهج يتحول الفقير إلى طاقة فاعلة ومنضبطة.. لا طاقة هائجة ثائرة تحطم كل شيء، وتحرق اليابس والأخضر باسم الفقر والفقراء.

هذا هو جيش محمد ﷺ معظمه من الفقراء والمحتاجين وأهل الصفة، ومع ذلك فهــو قمة في الانضباط وتحمل المســؤولية، ولا أدل على ذلــك من قول إحدى أمهات المؤمنين وزوجة قائد هذه الأمة الطاهرة عائشة رضي الله عنها: «لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشــبع من التمر»[2] يا الله!! إنها لم تقل: نشــبع من اللحم أو الفاكهة ولا العسل.. قالت: التمر.

بل إنها تحدث ابن أختها عن موائد رئيس الدولة الإسلامية فتقول: يا «ابن أختي إن كنــا لننظر إلى الهــلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شــهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار.

فقلت يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا»[3].

وما دمنا نتحدث عن أمهات المؤمنين والموائد.. يتهادى ســؤال لطيف: ماذا عن أم المؤمنين الجديدة.. ماذا عن عرسها ومائدة ذلك العرس..؟

زفاف صفية

لــم يكن ذلك الزفاف على أرض خيبر، ولا على أرض واد القرى المفتوحة، والذي جرى عليه من الأحكام ما جرى على أرض خيبر دون سفك دماء.

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد ٥-٤٢٤.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٠.
(٣) صحيح البخاري ٢ - ٩٠٧.

صفية مازالت في عدتها، والنبي ﷺ يهم بمغادرة الوادي، وفي الطريق انتهت عدة صفية، وحلت للنبي عليه السلام، وكان عليه السلام قد أوصى أم أنس بن مالك بصفية للعناية بها وتسليتها، وعندما وصل الركب إلى مكان يقال له (سد الصهباء) زفت صفية للنبي ﷺ، وأقيمت مائدة بسيطة كبساطة الصحابة.. كسماحة الإسلام، حيث لم تغل القدور، ولم يتوافر فيها لحم ولا خبز.. حتى الماء فيها كان من بقايا المطر.

يقول أنس: «لقد رأيت لرسول الله ﷺ وليمة ما فيها خبز ولا لحم»[1] وحتى القدور لم تستخدم.. كانت وليمة متواضعة جداً، فقد حفر الصحابة حفراً في الأرض، ثم ألقوا عليها الجلود المدبوغة النظيفة، ثم سكب فيها السمن، ووضع الإقط والتمر.

هذا ما ذكره أنس ابن مالك في حديثه حيث يقول إن النبي ﷺ «دفعها إلى أم سليم تصنعها له وتهيئها وتعتد في بيتها، وهي صفية بنت حيي ثم خرج رسول الله ﷺ من خيبر حتى إذا جعلها في ظهره، نزل ثم ضرب عليها القبة، فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: من كان عنده فضل زاد فليأتنا به.

فجعل الرجل يجيء بفضل التمر، وفضل السويق، حتى جعلوا من ذلك سواداً حيساً[2]، فجعلوا يأكلون من ذلك الحيس، ويشربون من حياض إلى جنبهم من ماء السماء، فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ وجعل رسول الله ﷺ وليمتها التمر والأقط والسمن، فحصت الأرض أفاحيص، وجيء بالأنطاع، فوضعت فيها، وجيء بالأقط والسمن، فشبع الناس.

وقال الناس: لا ندري أتزوجها، أم اتخذها أم ولد؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد.

فلما أراد أن يركب حجبها، فقعدت على عجز البعير، فعرفوا أنه قد تزوجها»[3] وكانت طريقة إركاب رسول الله ﷺ لصفية على البعير تنم عن منتهى الذوق والرقة والمواساة.

---

(١) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ٣٨٣ وغيره من طرق عن عمر بن معدان وثابت عن أنس وثابت تابعي ثقة سمع أنس بن مالك وقد مر معنا.

(٢) الحيس هو خليط من التمر دون نوى والإقط المطحون.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٥ والزوائد له أيضاً ٢-١٠٤٧.

يقــول أنس: «.. ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيت رســول اللــه ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته، فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب»[1] شــعرت صفية بعاطفة غامرة.. شــعرت بعزاء يهطل مطراً على قيظ حزنها، فتحول البغــض إلى حب، وعاد الحزن مــن حيث أتى. أما النبي ﷺ فقــد تحول إلى غمامة تظللها، وقــدم اعتذارات أذابت كل كلس اليهود في فؤادها، حتى أصبح مرتعاً لمحمد، وملكاً لرب محمد.

تذكر صفية تلك الأيام وأمواجها الغريبة المتلاطمة.. تتذكر حبيبها ﷺ وهو:

يسأل عن الكدمة حول عين حبيبته

وذلــك عندما «رأى رســول الله ﷺ بعيني صفية خضرة فقــال يا صفية ما هذه الخضرة؟ فقالت كان رأسي في حجر ابن أبي حقيق وأنا نائمة، فرأيت كأن قمراً وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني وقال: تمنين ملك يثرب؟

قالت: وكان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إلي، قتل زوجي وأبي وأخي، فما زال يعتذر إلي ويقول: إن أباك ألب علي العرب وفعل وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسي»[2]

تلك الاعتذارات والمشــاعر بينت لها مدى الفــارق بين هذا النبي الكريم وبين زوجها الســابق العنيف الذي كان يقودها إلى جهنم، بينت مدى الفارق بين والدها اللئيم الخائن، ونبيها الوفي.. تلك الكلمات أيقظتها على عالم النبوة والتوحيد لا المتاجرة بهما.

بعدهــا «أقام النبــي ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنــى عليه بصفية»[3]، ثم واصل ﷺ مســيره عائداً إلى المدينة.. محاطاً بجيش كالمشــاعر.. ســلمة ابن الأكوع يتذكــر في طريق العودة الشــهيد علــى أرض خيبر عامر بن الأكــوع، ويتذكر حداءه الجميل على هذا الطريق، فتهيج مشــاعره فلا يجد ألطف من النبي ﷺ كي يشاركه تلك المشاعر. فبم رد عليه وماذا فعل سلمة..؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٧٧٨.

(٢) حديث صحيح مر معنا في بداية الكتاب.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٣.

يقول رضي الله عنه «قفل رسول الله ﷺ من خيبر، فقلت: يا رسول الله ائذن لي أن أرجز لك. فأذن له رسول الله ﷺ، فقال عمر ابن الخطاب: أعلم ما تقول. فقلت:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فقال رسول الله ﷺ: صدقت

وثبت الأقدام إن لاقينا وأنزلن سكينة علينا

والمشركون قد بغوا علينا

ثم يقول سلمة: يا رسول الله، إن ناساً ليهابون الصلاة عليه يقولون: رجل مات بسلاحه. فقال رسول الله ﷺ: مات جاهداً مجاهداً، فله أجره مرتين وأشار بإصبعيه»[1].

وفي طريق العودة أيضاً لم يكن التعبير عن المشاعر شعراً فقط، بل سلوكاً يفيض بالعطف والرحمة. يقول أبو أمامة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ أقبل من خيبر ومعه غلامان، فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله، أخدمنا. فقال: خذ أيهما شئت. فقال: خر لي. قال: خذ هذا ولا تضربه، فإني قد رأيته يصلي مقبلنا من خيبر، وإني قد نهيت عن ضرب أهل الصلاة، وأعطى أبا ذر الغلام الآخر، فقال: استوص به خيراً.» ويمر وقت فيشاهد عليه السلام أبا ذر فيقول له: «يا أبا ذر، ما فعل الغلام الذي أعطيتك؟ قال: أمرتني أن أستوصي به خيراً فأعتقته»[2]

واصل الركب مسيره، وعندما اقترب من المدينة تدفقت العواطف في كل اتجاه، ولاح للنبي ﷺ جبل أحد من جديد، فباح الجبل بحبه لمن حوله. أنس كان ممن حوله.. يحدثنا عن تلك اللحظات فيقول: «فسرنا حتى إذا أشرفنا على المدينة نظر إلى أحد، فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه»[3].

باح الجبل بحبه، وتحركت القلوب والمطايا عندما أشرقت بيوتات المدينة كالعاشقات.. في تلك اللحظات أسرع كل شيء نحوها، وأسرع أنس وقال: «فلما دنوا

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٢٩.

(٢) سنده حسن رواه أحمد ٥-٢٥٨ حدثنا عبد الله حدثنا أبي ثنا عفان ثنا حماد بن سلمة أنا أبو غالب عن أبي أمامة. أبو غالب حسن الحديث. التقريب٤٦٠ وبقية الرواة أئمة ثقات.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٥٩.

من المدينة دفع رسول الله ﷺ ودفعنا»[1] «فانطلقنا حتى إذا رأينا جدر المدينة هششنا إليها، فرفعنا مطينا ورفع رسول الله ﷺ مطيته، و(صفية) خلفه وقد أردفها رسول الله ﷺ»[2] لكن يبدو أن بعض القلوب المؤمنة لم تكن مشتاقة جداً لمقدم صفية خلف رسول الله ﷺ...

أقصد قلوب حبيباته إمهات المؤمنين.. المشتاقات إلى كل شيء تحمله الناقة، إلا إلى هذه الجميلة التي تزاحمهن على بعيره وقلبه، لكن شيئاً حدث لصفية شفى بعض غليلهن وغليل خدمهن فـ:

ما الذي حدث لصفية على أبواب المدينة

يقول أنس رضي الله عنه: «أقبلنا من خيبر أنا وأبو طلحة ورسول الله ﷺ، وصفية رديفته... فعثرت ناقة رسول الله ﷺ [العضباء وندر رسول الله ﷺ وندرت، فقام فسترها، وقد أشرفت النساء فقلن: أبعد الله اليهودية. قلت: يا أبا حمزة أوقع رسول الله ﷺ؟ قال: إي والله لقد وقع]، فصرع رسول الله ﷺ وصرعت صفية، فاقتحم أبو طلحة فقال: يا رسول الله جعلني الله فداك أضررت؟ قال: لا عليك المرأة [إنها أمكم].

فألقى أبو طلحة على وجهه الثوب، فانطلق إليها فمد ثوبها عليها، ثم أصلح لها رحلها [فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها، حتى قام رسول الله ﷺ فسترها.

فأتيناه فقال: لم نضر]، فركبنا ثم اكتنفناه أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فلما أشرفنا على المدينة، أو كنا بظهر الحرة قال رسول الله ﷺ: آيبون عابدون تائبون، لربنا حامدون.. فلم يزل يقولهن حتى دخلنا المدينة»[3]

«فدخلنا المدينة فخرج جواري نسائه يتراءينها ويشمتن بصرعتها»[4] «ثم نظر إلى المدينة فقال: اللهم إني أحرم ما بين لابتيها بمثل ما حرم إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم»[5].

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٥.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٧.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٥-٢٢٢٤ وأحمد ٣- ١٨٧ من طريق البخاري واللفظ لأحمد والزيادة الأولى لمسلم ٢-١٠٤٥ والثانية للبخاري والثالثة لمسلم ٢-١٠٤٧.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٧.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٥٩.

كان الجميع بانتظار هؤلاء الفرسان وفتوحاتهم المجيدة وكان ﷺ يبادلهم ويبادل مدينتهم الجميلة شوقاً وعاطفة، أما المدينة فـ:

المدينة تعد مفاجأة للنبي ﷺ

في المدينة فتح النبي ﷺ عينيه على فرحة كفرحة خيبر، فالذي يقف أمامه الآن حبيب طالما انتظر قدومه.. إنه ابن عمه جعفر بن أبي طالب، ومعه من تبقى من المهاجرين.. قدموا من الحبشة قبل أيام، ومعهم من هاجر من اليمن إلى الحبشة. أبو موسى الأشعري كان أحدهم.. كانت مفاجأة سارة جداً للنبي ﷺ عبر عنها بكلمات من مشاعر «جابر بن عبد الله قال: لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ: ما أدري بأيهما أنا أفرح، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر»[1].

الصحابة كلهم فرحوا بمقدم إخوانهم من بلاد الغربة والمعاناة والكرم، وقد قدر عليه السلام تلك المعاناة، وأحب أن يرحب بهم بطريقة تخفف شيئاً من فقرهم وآلامهم، فميزهم عن غيرهم.

يقول أحدهم وهو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال بضعاً وإما قال ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي. فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده. فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا ههنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا.

فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر فأسهم لنا أو قال: أعطانا منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم، فكان ناس من الناس يقولون لنا، يعني لأهل السفينة: نحن سبقناكم بالهجرة»[2] إلى المدينة.

---

(١) حديث حسن رواه الحاكم ٢-٦٨١ و٣-٢٣٣ من طريق أجلح عن الشعبي عن جابر وقد جاء من مرسل الشعبي عند غيره بسند صحيح إلى الشعبي وله شواهد لا تخلو من ضعف وعند الطبراني بسند لا بأس به ٢٢-١٠٠ عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه وروي بسند ضعيف عن عائشة في الإخوان ١٧٩ وقد فصلت تخريجه في صحيح الموسوعة.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٤-١٩٤٦.

وكأنهم يعنون أنهم أولى بالنبي ﷺ من هؤلاء المبحرين من أرض إفريقيا السخية، وكان أبـــرز من قال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قالها مُرحِّباً ومُمازحاً زوجة جعفر بن أبي طالب المهاجرة العظيمة الشابة (أسماء بنت عميس) التي تزور الآن ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، لكن تلك المداعبة حركت داخل أسماء آمالاً بتثمين مرارة الغربة ومعاناة التشـــرد في ســـبيل الله، فليس هناك من تشـــكو إليه عمر سوى النبي عليه السلام، وليس هناك من يشفي غليلاً داخلها سوى النبي ﷺ.

توجهت إليه فكانت هذه القصة المنسوجة بالشكوى والسفر

مهاجرة تشكو عمر

يقول أبو موســـى الأشعري: «دخلت أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم معنا، على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر. فدخل عمر على حفصة وأســـماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: آلحبشية هذه، آلبحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم.

قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم.

فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار، أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشـــة، وذلك في الله وفي رســـوله ﷺ. وأيم الله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلمـــا جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي اللـــه، إن عمر قال كذا وكذا قال: فما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا.

قال: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان.

قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ.

قالت أســـماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني»[1] والبشرى تملأ قلبه وروحه، فالإسلام لا يغفل دور مسلم مهما كان هذا المسلم ضعيفاً مغلوباً على

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٦.

أمره.. مادامت معاناته في الله. فقد «رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه فقال النبي ﷺ: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»[1]

أما عمر رضي الله عنه فلم يكن يتحدث عن نفسه فقط.. كان يتحدث عن أبي بكر وعثمان وعلي وطلحة وبلال، وغيرهم من المهاجرين الذين كابدوا ما كابدوا في سبيل الله، وبذلوا ما بذلوا في بدر وأحد والخندق وخيبر.. كان عمر يتحدث عن أهل بيعة الرضوان، أما سعد رضي الله عنه فقد رأى في قتاله وهجرته تفوقاً على ذلك الصحابي الضعيف، فكان للإسلام ميزان أدق لا يغفل فيه أي شيء، ولاسيما تلك الأشياء التي يفضل البعض أن يحولها إلى أسرار حميمة فيما بينهم وبين الله فقط، ويرفضون أن يفسد أحد تمتعهم بتلك الأجواء الحميمة مع الله.

ذات يوم «مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع. ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع.

فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[2].

كان عليه السلام يقدم درساً مجانياً لمن كلف نفسه توجيه النقد للناس محاولاً التسلل بينهم وبين الله.. جاعلاً من البغض في الله نوافذ يخرج من خلالها نشازاً داخل نفسه.

أحد الصحابة يتحدث عن ذلك فيقول: «إن رجلاً مر على قوم فسلم عليهم فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: والله إني لأبغض هذا في الله. فقال أهل المجلس: بئس والله ما قلت، أما والله لتبئنه. قم يا فلان (رجلاً منهم) فخبره.

فأدركه رسولهم، فأخبره بما قال. فانصرف الرجل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، مررت بمجلس من المسلمين فيهم فلان، فسلمت عليهم فردوا السلام، فلما جاوزتهم أدركني رجل منهم فأخبرني أن فلاناً قال: والله أني لأبغض هذا الرجل في الله. فادعه فسله على ما يبغضني.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٦١.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٥-١٩٥٨.

فدعاه رسول الله ﷺ فسأله عما أخبره الرجل، فاعترف بذلك وقال: قد قلت له ذلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: فلم تبغضه..؟ قال: أنا جاره، وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه الصلاة المكتوبة التي يصليها البر والفاجر.

قال الرجل: سله يا رسول الله هل رآني قط أخرتها عن وقتها، أو أسأت الوضوء لها، أو أسأت الركوع والسجود فيها..؟

فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا. ثم قال: والله ما رأيته يصوم قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر. قال: فسله يا رسول الله هل رآني قط أفطرت فيه، أو انتقصت من حقه شيئاً؟ فسأله رسول الله ﷺ فقال: لا. ثم قال: والله ما رأيته يعطي سائلاً قط، ولا رأيته ينفق من ماله شيئاً في شيء من سبيل الله بخير إلا هذه الصدقة التي يؤديها البر والفاجر. قال: فسله يا رسول الله هل كتمت من تلك الزكاة شيئاً قط، أو ماكست فيها طالبها..؟

فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا. فقال له رسول الله ﷺ: قم إن أدري لعله خير منك»[1]

إن الشعور بالتفوق على الآخرين مهما كان رصيده من الظاهر والباطن.. لا يجيز لصاحبه التطاول على الآخرين، وانتقاصهم تحت أي مبرر، فالحكم على الآخرين من خلال ظواهرهم غير دقيق إلا في حالة فساد الظاهر فساداً ينم عن عفن الباطن، وهناك فرقٌ بين الحكم على الشخص، والحكم على سلوك صادر عنه، والشعور بالتفوق يدخل في الكبر، فالكبر (بطر الحق وغمط الناس)[2] أي رد الدليل والنظر بدونية للناس، والكبر شيء خطير، فذات يوم سـ(يحشر المتكبرون يوم القيمة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، يساقون إلى سجن في النار يقال له بولس، يعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال، عصارة أهل النار)[3] فأي ذلة سيجنيها المتكبر وهامته تداس بالأقدام، وأي كرامة له وشرابه من إفرازات أهل النار النتنة.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٥- ٤٥٥ عن مظفر بن مدرك ثنا إبراهيم ابن سعد ثنا بن شهاب عن أبي الطفيل مظفر وشيخه ثقات من رجال التقريب.

(٢) صحيح مسلم ١-٩٣.

(٣) سنده حسن مشهور رواه الحميدي ٢-٢٧٢ عن سفيان الثقة داود بن شابور والصدوق محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

لو اكتفى هذا المتكبر بشكر الله على ما منحه الله من مال وجاه ونسب وجمال، لكان في مصاف الشاكرين الذين يحبهم الله، ويكرمهم الله فوق كرامتهم، فالشكر لله من أولويات ما يطلب من الأنبياء، فالله يخاطب نبيه موسى قائلا: (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)

المتكبر جحد نعمة الله ونسبها لنفسه، كما فعل قارون الذي خسر الدنيا والآخرة.. قارون الذي شح على ربه بكلمة شكر.

كان النبي ﷺ يحاول المحافظة على ما أنجزه الإسلام من مساواة وتلاحم، وكان المهاجرون والأنصار هم النموذج البشري الصرف الذي قدمه النبي ﷺ للعالم.. لقد قدم الأنصار الكثير، فماذا فعل أخوتهم المهاجرون بعد غزوة خيبر؟

المهاجرون يردون الجميل بالوفاء

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما قدم المهاجرون من مكة المدينة؛ قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أم أنس بن مالك وهي تدعى أم سليم أعطت رسول الله ﷺ عذاقاً لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته)[1] وهي أم أسامة بن زيد.

قال أنس ابن مالك (أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، فرد رسول الله ﷺ إلى أمي عذاقها، وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه)[2] وقد حسن فتح خيبر من مستوى التغذية لدى المسلمين، فأصبحوا كما يقول ابن عمر رضي الله عنهما «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»[3]

أي ما شبعنا من التمر فقط، ومع هذه الحاجة والفقر كان الإسلام يقدم ثقافة متحضرة لأتباعه، حتى لا تزعزع المادة توازن الإنسان، فالفتوح قادمة، والوعود كشمس

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٩١.
(٢) صحيح مسلم ٣-١٣٩١.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.